عدل الإسلام فى العمال والخدم

خرج أبو ذر الغفارى رضى الله عنه ذات يوم من المدينة ومعه خادمه وعليه حُلة وعلى خادمه حلة مثلها . فقابله أحد أصحابه فسأله : كيف تُلبس خادمك مثل ما تلبس ؟ فقال له أبو ذر : إنى سابَبْت رجلا ، وكان منى أن عَيَّرته بأمه وعبته بسوادها — وكان الرجل خادماً أمه سوداء — فشكانى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لى النبى صلى الله عليه وسلم : أعيرته بأمه ؟ إنك امرؤ فيك جاهلية — يريد الرسول أن الأب والأم لاذنب لهما فى السباب ، ولا خصام بينهما وبينك ، فسبُّهما طغيان فى الخصومة ، وإسراف فى المشاتمة ، وذلك من أخلاق الجاهلية — ثم قال عليه الصلاة والسلام إرشاداً إلى منزلة الخادم من المخدوم ، وإلى ما يجب على المخدوم فى معاملة الخادم : « إن إخوانكم خَوَلكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليُطعمه مما يأكل ، وليُلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم ما يغلبهم . فإن كلفتموهم ما يغلبهم فأعينوهم » .

بيَّن الرسول بهذا :

(١) أن الخدم والمخدومين إخوان فى « الدين والإنسانية » وأُخوَّةُ الدين لها حقوق ، وأُخوَّةُ الإنسانية لها حقوق .

(٢) وأن الله مكّن المخدومين من الخادمين . وجعلهم تحت أيديهم ، يقومون بمصالحهم ، ويحققون أغراضهم فى شئونهم ، وبدونهم يختل نظامهم ، وتذهب راحتهم .

(٣) وأنهم إذا كانوا كذلك وجب على المخدومين قيامًا بحق الأخوة وحق الخدمة ، أن يحسنوا إلى خادميهم ، ويعطفوا عليهم بما يشرح صدورهم ، ويطهر قلوبهم ، وأن يوفوهم حقوقهم وأجورهم . ويرضوهم فى طعامهم وكسوتهم ، ووجب عليهم أيضاً ألا يكلفوهم من الأعمال ما يشق عليهم ويضعف قوتهم . فلا يصلحوا من بعد لهم ولا لغيرهم ، وينسابوا فى الطرقات يتكففون ، ويكونوا وصمة فى جبينهم وجبين الأمة . وإذا لم يكن بد من عمل شاق ، وجب أن يعينوهم عليه ، ويساعدوهم فيه إما بأنفسهم أو بضم آخرين إليهم .

وقد روى « أن رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب عبداً له فجعل العبد يقول : أسألك بالله ، أسألك بوجه الله ، فلم يُعفه ، فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم صياح العبد فانطلق إليه ، فلما رأى الرسول أمسك يده ، فقال له الرسول : سألك بوجه الله فلم تُعفه ، فلما رأيتنى أمسكت يدك ؟ قال : فإنه حرٌّ لوجه الله يا رسول الله . فقال الرسول : لو لم تفعل لسفعَتْ وجهك النار ! » .

هذا هو هدى النبى الكريم فى معاملة الخادمين وهو أسمى ما يتصور الناس من العدل الاجتماعى !

مثل رائع من الإيثار

عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إنى مجهود ، فأرسل إلى بعض نسائه فقالت : والذى بعثك بالحق ما عندى إلا ماء . ثم أرسل إلى الأخرى فقالت : والذى بعثك بالحق ماعندى إلا ماء . ثم أرسل إلى الباقيات فقالت كل واحدة منهن : لا والذى بعثك بالحق ما عندى إلاماء . فقال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه : من يُضيف هذا الليلة ؟ فقال رجل من الأنصار : أنا يا رسول الله . فانطلق به إلى رحله فقال لامرأته : أكرمى ضيف رسول الله ، فقالت : ليس عندى إلا قوت صبيانى . قال : فعللهم بشىء ، وإذا أرادوا العَشاء فنوّميهم ، وإذا دخل ضيفنا فأطفئى السراج وأريه أنّا نأكل معه . فقعدوا وأكل الضيف حتى شبع وباتا طاوَيْين . فلما أصبح الأنصارىّ غدا على النبي صلى الله عليه وسلم فقال له : لقد عجب الله من صنيعكما بضيفكما الليلة ! » .

* * *

قصة رائعة من قصص الإيثار ، والإيثار خلق تجلى فى أصحاب

محمد صلى الله عليه وسلم وسجله الله لهم فى كتابه العزيز حيث يقول : والذين تبوَّءُوا الدَّارَ والإيمانَ من قبلهم يحبون مَنْ هاجرَ إليهم ، ولا يجدُونَ فى صدورهم حاجةً مما أُوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصةٌ ، ومَنْ يوقَ شُحَّ نفسه فأُولئك هم المفلحون ، وبه ارتبطت قلوبهم ، وتماسكت وحداتهم ، وقويت فى الله أخوَّتهم .

قابلوا هذا الإيثار الذى يُرتبط به الفلاح بما نحن عليه من أثرة وأنانية : كل امرىء منا حريص على أن ينتزع ما فى يد أخيه ، وعلى أن يضم إلى ألوفه المؤلفة درهم أخيه المقِل ، وليس ذلك فى المال فحسب ، ولكننا أنانيون فى كل شىء : فى الأعمال ، فى الوظائف ، فى الصيت والشهرة ، فى الجاه والنفوذ ، حتى لكأن الواحد منا يريد أن يجعل يده وحده على الدنيا جميعها !

لو أننا حين فاتتنا مرتبة الإيثار لم نلق بأنفسنا إلى الدرك الأسفل من الطرف الآخر ، طرف الأثرة والأنانية ، لكان لنا سبيل إلى منزلة وسط هى التمتع بما آتانا الله من مال وفضل ، هى الانتفاع بما رزقنا الله من نفوذ وسلطان ، أو العود بذلك كله على أرباب الحاجات وأصحاب المظالم ، عَوْداً تُردُّ به الحقوق ، وتطمئن به القلوب ، ويُذهب الله به الغل والحقد من الصدور .

وفى هذه القصة الرائعة بعد ذلك مثل عظيم للزوجة الصالحة ،

المتعاونة فى إخلاص مع زوجهـا ، الحريصة على كرامته ، المكرمة له فى ضيفه : امرأة فقيرة ليس فى بيتها إلا قوت صبيانها تقدم هذا القوت لضيف زوجها عن طيب خاطر . وتحتال لأفلاذ كبدها حتى يناموا بلا عشاء ، ثم تحتال للضيف فتطفىء السراج حتى لا يشعر الضيف أنه منفرد بالأكل دونهما ، وتبيت هى وزوجها طاويين جائعين !

أين من هذا صنيع المتحضرات المتمدينـات اليوم ؟ أحسب إحداهن لو فوجئت بضيف ليس فى حسابها ، ولا فى عداد الجالسين إلى مائدتهـا ، لثارت على زوجها ، وأرغت وأزبدت ، وهددت وتوعدت ، ولعل الله أن يعجب من صنيعها مع الضيف عجب سخط وغضب ، كما عجب من صنيع أختها البدوية عجب رضا وقبول !

حقوق الجيران

« عن ابن عمر وعائشة رضى الله عنهما قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورّثه »

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : والله لا يؤمن . والله لا يؤمن . والله لا يؤمن ! قيل : من يارسول الله ؟ قال : الذى لا يأمن جارُه بوائقه (١) »

* * *

إن الجوار أمر طبيعى لاغنى عنه ، ولا طمأنينة ولا قرار فى الحياة بدونه ، وكل امرىء منا يشعر بأن قسطا عظيما من سعادته وسعادة أهله وأبنائه مرتبط بعلاقته مع جيرانه : إن كان معهم متفاهما متعاونا متبادلا المحبة والاحترام ، كان مستريحا آمنا مطمئنا متجها إلى أعماله ، متوفرا على أداء واجباته ، وإن كان معهم فى خصام وشجار وتحاسد وتباغض وتقاطع وتدابر ، كان متعبا مضطربا خائفا وجلا مشغولا بألوان من المشاكل وفنون من الكيد ،

---

(١) البوائق : الغوائل والشرور .

تصرفه عن عمله ، وتكدر عليه صفو حياته ، وتفسد أخلاقه وأخلاق أهله وبنيه وبناته .

لذلك كان من أهم ماأوصى به الدينُ رعاية الجار ، والقيام بحقه ، وإحسان معاملته ، والبعد عن كل مايسيئه فى نفسه أو أهله أو ولده أو داره أو طريقه أو عمله .

وهاهو ذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوصى به على هذا النحو المؤكد ، وبهذا الأسلوب القوىّ ، فينبئنا أن الوصية به من السماء لامن الأرض ، من جبريل عن رب العالمين ، وأنها وصية متكررة ملحَّة ، لاتقف عندمرة أو مرتين أو ثلاث، ولكنها تصل إلى الحد الذى يظن معه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أن الله سيجعل للجار حقا فى ميراث جاره ، كأنه أحد أفراد أسرته الأقربين ! ثم يقرر الرسول صلى الله عليه وسلم أن المؤذىَ لجيرانه غير مؤمن ، ويكرر هذا النفى فى حديثه ثلاث مرات ، ويقسم عليه فى كل مرة !

وشبيه بهذا ، حديث المرأة التى كانت تقوم ليلها وتصوم نهارها ولكنها تؤذى جيرانها بلسانها ، فقال فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم : لاخير فيها ، هى من أهل النار !

وقد ورد القرآن الكريم بما يثبت هذه العناية الكبرى بالجار

ث أمر الله عز وجل بالإحسان إليه ، بعد أمره بعبادته سبحانه — وعدم الإشراك به !

* * *

وللجار عليك حقوق : أن تكف نفسك عن أذاه ، وأن نح عن زلاته ، وتغض عن عوراته ، وأن تواسيه إذا حلت به بة ، وأن ترعاه فى أهله وولده إذا غاب ، وأن تفرح لفرحه ، زن لحزنه ، وألا تتطلع إليه لتعلم مايخفى من أسراره ، وألا سو على ولده ، وألا تفسد عليه خادمه ، وألا تُتْبِعه النظرَ فيما ل إلى داره ، وألا تتفاخر عليه بما آتاك الله من نعمة فى مال صحة أو ولد .

وليس الجار هو الملاصق لبيتك فقط ؛ فإن لك جيرانا رين لهم عليك حقوق : زميلك فى وظيفتك جار ، فلا تش به تنم عليه . نظيرك القريب فى تجارتك جار فلا تضاربه ، ولا ْ على سَوْمه ، ولا تحمل عليه حقدا ، ولا تدعُ ضده بدعاية ة . الزارع بجانب أرضك جار ، فلا تحتجز دونه الماء ، ولا تمنعه ق الارتفاق ، ولا تسمّ ماشيته ، ولا تحرِق ساقيتَه ، ولا تقَلِّع ، زراعته ، ولا تفسد عليه مستأجريه ، والتلميذ إلى ب التلميذ جار ، والعامل إلى جانب العامل جار ، والزوج إلى ب الزوج جار .

هذه حقوق الجيران . وعلى النساء فيها مثل ماعلى الرجال ، بل قسط النساء فيها أكبر : فهن القديرات على حسم أسباب النزاع أو زيادتها ، وهن المطفئات لنيران العداوة أو الموقدات ، وهن المحمِّسات للأزواج والأبناء على الشر أو المهدِّئات ، وهن صاحبات التصرف الحسن إذا شئن ، والشاذ إذا شئن ، وفى أيديهن مفتاح السعادة أو الشقاء بين الجيران !

وإن الرجل ليخرج إلى عمله ، ويترك زوجته فى بيته ، فمن حقه عليها أن تسلك مع جيرانها سلوكا مهذبا ، وأن تتلطف معهم ، فلا تثير نزاعا ، ولا تسترسل فى جدال ، وأن تصبر على بعض الأذى فى سبيل ذلك ، فإنها إن فعلت هيأت لزوجها الهدوء إذا عاد ، وأشعرته سعادة الزوجية ، وهناءة الأسرة ، وحببت إليه بيته وأولاده ، أما ذلك الذى يترك بيته هادئا فى الصباح ، ثم يعود إليه فى المساء ، فإذا الحربُ قد أعلنت ، وإذا الحدود قد اقتُحمت ، وإذا الغارات قد شُنَّت ، فذلك — والله — مسكينٌ أىُّ مسكين!

رعاية اليتيم

« عن سهل بن سعد رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا — وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى » .

« وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يُبعث يوم القيامة قومٌ من قبورهم تأجَّجُ أفواهُهم ناراً ، فقيل : من هم يا رسول الله ؟ قال : ألم تر إلى الله يقول « إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظُلماً إنما يأكلون فى بطونهم ناراً » .

* * *

ما أجدر اليتيم بالرعاية والعطف ، والشفقة والبر . إنه نبات ناشىء بحاجة إلى السقى والتعهد ، إنه إنسان صغير كشَّر له الزمان عن أنيابه وهو فى مطلع حياته ، إنه طفل لا يصلحه إلا السرور والمرح والهدايا والبشاشة والرحمة ، ولكنه حُرم ذلك كله . إنه يرى الأطفال من حوله مدللين يدعون آباءهم فيلبون دعاءهم ، ويسارعون إلى تحقيق رغباتهم ، أما هو فيظل وحيداً شارد الفكر ، إن كان فقيراً جفاه الأقربون والأبعدون ، وإن كان غنياً تربص لأمواله الأوصياء والطامعون !

هذا هو اليتيم ! هذا هو الإنسان الغريب بين بنى الإنسان ! ولعمرى إن البر به والقيام برعايته وإصلاح شأنه لواجبات إنسانية يجب على الناس إن يقوموا بها ، لا لمصلحة اليتيم فحسب ، ولكن لمصلحة المجتمع أيضاً ، لئلا يفسد ويشرّد فيصير على الأمة وبالا ، ولذلك دعانا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى القيام بهذه الواجبات فى أسلوب رائع من الترغيب والتخويف : فالذين يكفلون اليتيم كفالة قوامها الإصلاح والبر والرحمة ، يأتون يوم القيامة فى جوار الرسول ، ويكونون معه جنباً إلى جنب كالإصبع بجانب الإصبع ، وأنعم بجوار الرسول يوم الفزع الأكبر من جوار ! أما الذين يتخذون كفالة اليتيم مورداً لاقتناص المال واختلاسه وأكله ظلماً ، فإنهم سيبعثون يوم القيامة وأفواههم تتأجج ناراً !

ولقد عُنى القرآن الكريم بأمر اليتيم مستقصياً أحواله ، مبيناً أحكامه حتى استغرق ذلك منه ما يقرب من عشرين آية فى مواضع متفرقة :

أمر بالإحسان إليه ، وبالوالدين إحساناً وذى القربى واليتامى والمساكين ، وذكر النبى صلى الله عليه وسلم بأنه كان يتيما — يستثير بهذا التذكير عطفه وعطف المسلمين على اليتامى — « ألم يجدك يتيما فآوى » ، ونهاه عن قهر اليتيم « فأما اليتيم فلا تقهر » ، وجعل العنف عليه أمارة على التكذيب بالدين . « أرأيت الذى يكذّب

بالدين ؟ فذلك الذى يدعُّ اليتيم ، وأمر بإصلاحه فى كافة أحواله : فى نفسه . فى خلقه . فى تربيته وتعليمه . فى ماله « ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير » وحذر من قرب ماله إلا بالمعروف « ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا » والعهد هنا عهد التضامن الإنسانى على خير الفرد والجماعة ، وأمر بإعطاء اليتامى أموالهم عند بلوغهم ، وحذر من أكلها « فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم ، ولا تأكلوها إسرافا وبدارا أن يكبروا » « إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا » وأمر بالعدل والقسط فى يتامى النساء اللاتى يرغب الأوصياء أو أبناؤهم فى التزوج منهن طمعا فى أموالهن أو تخففا من المهر الذى يدفع لأمثالهن « وما يتلى عليكم فى الكتاب فى يتامى النساء اللاتى لاتؤتونهن ما كتب لهن وترغبون أن تنكحوهن والمستضعفين من الولدان ، وأن تقوموا لليتامى بالقسط . وما تفعلوا من خير فان الله كان به عليما »

وهكذا استقصى القرآن أحوال اليتامى منذ صغرهم إلى أن يبلغوا الرشد والزواج ، وليست هذه الوصايا والأحكام والتحذيرات بأمور ترجع إلى الفرد فقط بصفته الشخصية ، وإنما هى للأفراد بصفاتهم المختلفة ، وللجماعات ، ولولاة الأمر : فإذا كنت وصيا

على يتيم فأنت مطالب بها ، وإذا كنت محامياً فلا ترافع ضد اليتيم وأنت تعلم أنه مظلوم ، وإذا شهدت فى قضية ليتيم فلا تكتم الشهادة مجاملة للوصى عليه ، أو الآكل لماله ، وإذا كنت عيناً من الأعيان محترماً فى قومك فلا تترك الذين يظلمون اليتامى دون أن تنهاهم عن الظلم وتأمرهم بالإصلاح .

والجمعيات الخيرية مطالبة بأن تعنى بالأيتام عناية جادة ، ولا تكتفى بمجرد التقارير والخطب ومظاهر الدعاية الجوفاء ، والمجالس الحسبية عليها أن تعنى وتدقق فى كل شأن من شئون اليتامى والقاصرين ، فإن للأوصياء حيلا ومعاذير وتعللات ، وولاة الأمور مطالبون بالإشراف على كل ذلك إشرافاً فعالا يرضى الله ورسوله ويكفل الحقوق لأصحاب الحقوق !

فليقم هؤلاء جميعاً بواجباتهم ، فإنها دعوة الإنسانية ودعوة الدين « وليخشَ الذينَ لوْ تركوا مِنْ خلفهم ذرِّيَّةً ضِعافاً خافوا عليهِمْ فلْيتَّقوا اللهَ وليقولوا قولا سديداً » .

مفاتيح الخير

« عن سهل بن سعد رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن هذا الخير خزائن ، ولتلك الخزائن مفاتيح . فطوبى لعبد جعله الله مفتاحاً للخير مغلاقاً للشر ، وويل لعبد جعله الله مفتاحاً للشر مغلاقاً للخير » .

« وعن ابن عمر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن لله عباداً اختصهم بحوائج الناس ، يفزع الناس إليهم فى حوائجهم . أولئك الآمنون من عذاب الله »

« وعن على كرم الله وجهه قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا على . إن الله تعالى خلق المعروف ، وخلق له أهلا فحبَّبه إليهم ، وحبب إليهم فعاله ، ووجه إليهم طلابه ، كما وجه الماء فى الأرض الجدبة لتحيا به ، ويحيا به أهلها . إن أهل المعروف فى الدنيا هم أهل المعروف فى الآخرة ! » .

* * *

يحثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذه الأحاديث على باب عظيم من أبواب البر ، به تسود المحبة ، وتقوى الروابط بين

أفراد الأمة ، ويسلم المجتمع من كثير من الشرور والآثام : ذلك هو سعى القادرين فى مصالح الناس ، والمساعدة على إيصال الخير لهم ، ودفع الشر عنهم ، وقد وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم من يفعلون ذلك بأنهم « مفاتيح الخير مغاليق الشر » وأنهم « أهل المعروف » فى الدنيا والآخرة ، لذلك خلقهم ، ولذلك يسرهم ، يسوقهم إلى الخير كما يسوق الماء إلى الأرض الجرز (١) ، فتنبت ماشاء الله من نبات وثمر ، وأنهم « هم الآمنون من عذاب الله » .

هذه بشارات نبوية كريمة ينبغى أن يفرح بها أولئك الذين يسَّر الله لهم خدمة الناس ، وحببها إلى قلوبهم ، فانبعثت نفوسهم للسعى فى المصالح ومعاونة أصحاب الحقوق حتى تصل إليهم حقوقهم . ينبغى أن يفرحوا بها ، ويستقبلوا هذه الحاجات التى توجه إليهم من الناس على أنها نعم قد أنعم الله بها عليهم ، ومنازل عليا قد ارتضاها لهم ، وشكر النعمة فى هذا المجال يستدعى أن يخلصوا ، وأن يبذلوا كل جهد فى سبيل القيام بما ندبهم الله له ، وجعلهم أسبابه ومفاتيحه .

يستطيع كل إنسان منا أن يكون مفتاحاً للخير مغلاقاً للشر : بالمال يفعل ذلك من آتاه الله المال ، وبالرأى يفعل ذلك من آتاه الله الرأى ، وبالقلم يفعله من آتاه الله القلم ، وبالجاه يفعله من آتاه

---

(١) الأرض الجرز هى التى لاتنبت .

الله الجاه ، والزوجة تفعله فى بيت زوجها ، والابن يفعله مع أبيه ، والأب مع ابنه ، والصاحب مع صاحبه ، والجار مع جاره .

إذا استطعت بمالك أن تدفع حاجة محتاج ؛ فأنت مفتاح للخير مغلاق للشر ، وإذا استطعت بجاهك ونفوذك أن توصل صاحب حق إلى حقه ؛ فأنت مفتاح للخير مغلاق للشر ، وإذا آتاك الله قلما تبين به الحقائق ، وتدفع به فى صدر الفساد والباطل ؛ فأنت مفتاح للخير مغلاق للشر ، وإذا استطاعت الزوجة أن تُرقّق قلب زوجها على أهله ورحمه حتى يصلهم ببره وإحسانه ؛ فهى مفتاح للخير مغلاق للشر ، والصاحب الذى يجمع الله به شمل الأصحاب ، ويصونه عن الإيقاع بينهم بالنميمة والفساد ؛ مفتاح للخير مغلاق للشر ، والجار الذى يأمن جاره بوائقه ، ويسعد هو وأهله بجواره ؛ مفتاح للخير مغلاق للشر ، والزائر الذى يجلس إلى جانب الموظف فى مكتبه فيحثه على العمل وقضاء مصالح الناس ، ويشفع عنده لأصحاب المطالب العادلة شفاعة حسنة ؛ مفتاح للخير مغلاق للشر .

وهكذا نجد فى كل ميادين الحياة فرصاً لعمل الخير ودفع الشر ، إذا انتهزها الإنسان أرضى ربه ، وأرضى ضميره ، وأحسن إلى أمته ، فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا ، وفى ذلك فليتنافس المتنافسون !

الرفق بالحيوان

روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا سافرتم فى الخِصْب فأعطوا الإبل حظها من الأرض ، وإذا سافرتم فى الجدْب فأسرعوا عليها السير ، وبادروا بها نِقْيها ، وإذا عرَّستم فاجتنبوا الطريق ، فإنها طرق الدواب ومأوى الهوام بالليل » .

يقول : إذا سافرتم فى الأرض المخصبة بالنبات ، فمكنوا الإبل من أخذ حظها من الرعى ، وإذا كنتم فى أرض مجدبة لا نبات فيها فأسرعوا بها لتستريح قبل أن يذهب نِقْيها « مخها » من التعب ، وإذا عرستم « نزلتم أثناء السفر فى مكان لتستريحوا » ، فاجتنبوا الطريق فإنه طرق الدواب ومأوى الحشرات بالليل .

« ومر رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة ببعير قد لحق ظهره ببطنه — أى التصقت بطنه بظهره من الجوع — فقال : اتقوا الله فى هذه البهائم المعجمة ، فاركبوها صالحاً ، وكلوها صالحة » .

« ودخل مرة حائطاً (بستاناً) لرجل من الأنصار فإذا فيه جمل ، فلما رأى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، جَرجَرَ وذرفت عيناه ، فأتاه النبي صلى الله عليه وسلم فمسح سراته وذِفراه « الموضع الذى

يعرق من البعير خلف الأذن ، فسكن . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مَنْ رب هذا الجمل ؟ لمن هذا الجمل ؟ فجاء فتى من الأنصار فقال : هذا لى يا رسول الله . قال : أفلا تتقى الله فى هذه البهيمة التى ملَّكك الله إياها ؟ فإنه يشكو إلىَّ أنك تجيعه وتُدئبه ، — يريد تتعبه فى العمل — .

وقال عليه الصلاة والسلام : « بينا رجل يمشى فاشتد عليه العطش فنزل بئراً فشرب منها ثم خرج فإذا هو بكلب يلهث ، يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا مثل الذى بلغ بى فملأ خُفه ثم أمسكه بفيه ثم رقى فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له . فقالوا يا رسول الله : وإن لنا فى البهائم أجراً ؟ قال : فى كلِّ كبدٍ رطبة أجر » .

* * *

الرحمة من أخص أوصاف الله رب العالمين ، وقد كان له منها وصفان عظيمان بدىء بهما القرآن الكريم حيث يقول : « الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم » وركبت منهما جملة الاستعانة به سبحانه فى كل شىء : « بسم الله الرحمن الرحيم » ، وقد طلبها الله من عباده وجعلها عنواناً على الإنسانية الفاضلة ، ودليلا على الإيمان الكامل ؛ طلبها من عباده ، وجاء على لسان رسوله « من لا يَرحم لا يُرحم » والرسول يقرر فى هذه الأحاديث أن الحيوانات ذات

أرواح كأرواحنا ، وأنها تحس كما نحس ، وتتألم كما نتألم سخرها الله لنا لننتفع بها فنأكل لحمها ، ونستعين بها فى « والأنعامَ خلقها لكم فيها دِفءٌ ومنافعُ ومنها تأكلونَ فيها جمالٌ حين تريحونَ وحينَ تسرَحون ، وتحملُ أثقالكم إ لم تكونوا بالغيهِ إلا بشقِّ الأنفُس ، إنَّ ربَّكم لر رَحيم ، والخيلَ والبغال والحميرَ لتركبوها وزينة » .

وقد حرّم علينا لذلك إيذاءها بأى نوع من أنواع كالجوع والعطش ، والعمل المتواصل ، والحمل الثقيل ، و الرفق بها والإحسان إليها بالإطعام والسق ، وتهيئة المأوى ا وإزالة الدرن عنها ، والتخفيف عليها ، ويقرر عليه الس إيذاءها يستوجب غضب الله وعقابه .

وقد ورد « ان امرأة دخلت النار فى هرّة ربطتها فلم ولم تتركها تأكل من خشاش الأرض » وأن الرأفة بها وا عليها صنيع مشكور لصاحبه . يدل على قلب فياض بالرح الله « والراحمون يرحمهم الرحمن » .

أيها العمال . أيها الحمالون :

ألا تحبون أن يرحمكم الله وأن يشكر لكم ؟

الرسول يحرّم التجارة فى الخمر والخنزير

« عن ابن عباس رضى الله عنه أنه جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم يحمل مزادة خمر هدية إليه فقال له الرسول : هل علمت أن الله حرّمها ؟ قال : لا يارسول الله ، فكأن الرجل فهم أن تحريمها قاصر على شربها فبدا منه ما يدل على أنه يريد بيعها : فقال له الرسول : إنَ الذى حرّم شربها حرّم بيعها ففتح الرجل مزادته حتى ذهب ما فيها من الخمر » .

« ورُوى عن السيدة عائشة رضى الله عنها أنه لما نزلت الآيات من أواخر سورة البقرة فى تحريم الربا ؛ خرج النبى صلى الله عليه وسلم إلى المسجد ، فأعلن حرمة التجارة فى الخمر » .

« ورُوى عن جابر بن عبدالله أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عامَ الفتح وهو بمكة : إن الله حرّم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام » .

* * *

يظن كثير من الناس أن الله إنما حرّم من الخمر شربها ، ومن الخنزير أكله ، والرسول صلوات الله عليه يعلن فى هذه الأحاديث

حرمة التجارة فى الخمر والخنزير ويسوّى بين بيعها وبيع الأصنام التى كانت تعبد من دون الله ، وقد كانت العرب تشرب الخمر ، وتأكل الخنزير ، وتعبد الأصنام ، وتقتسم بالأزلام ، وتلعب الميسر ، وكان لكل ذلك فى أسواقها تجارة رائجة ، وتغلغلت هذه الأشياء فيهم حتى صارت شعائر لهم ، فجاء الإسلام ونظر إلى هذه الأشياء نظرة الكاره لها ، المنفّر من آثارها السيئة التى تؤثر فى العقيدة ، وفى العقول ، وفى الأبدان ، وفى علاقات الناس بعضهم ببعض ، وفى صفو الحياة وهدوئها ، فلم يكن بُدٌّ من تحريمها وتحريم ما يكون ذريعة إليها ، كالتجارة فيها ، وقد طلب الإسلام أشياء ونهى عن أشياء ، وجعل مجموع ما طلب وما نهى عنه يكون شعاراً خاصاً يميز المسلمين من غيرهم ويجعل لهم شخصية معينة بارزة ، بها يعرفون بين الأمم : طلب إقامة الصلوات ، والأذان لها ، وإقامة الجُمَع والأعيَاد ، وصوم رمضان ، والحج فى أشهر معلومات ، وحرّم الخمر والميسر والأنصاب والأزلام والخنزير وما ذبح لغير الله ، فأصبح كل هذا من شعائر الإسلام فعلا وتركا : إذا ما تمسك به المسلمون حققوا شخصيتهم ، وميزوا تقاليدهم ، واعتصموا عن الزيغ فى العقيدة والفساد فى العقول والأبدان ، وتضييع الأموال بغير فائدة ، وغير ذلك من شرور ما حرم الله ؛ بحبلٍ من الله متين ، وتَرْكُ شىء مما طُلب ، وفعل شىء مما حرّم ؛ هدم لهذه الشعائر ، وتضييع لشخصية

المسلمين : ترك إقامة الصلوات الخمس والجمع والأعياد ؛ هدم لجانب من جوانب الشخصية الإسلامية ، التجارة فى الخمر والتصريح بها ؛ هدم لجانب من جوانب الشخصية الإسلامية ، التجارة فى الخنزير ولعب الميسر ؛ هدم لجانب من جوانب الشخصية الإسلامية ، واجتماع ذلك كله فى الأمة ؛ هدم لشخصيتها من جميع الجوانب ، وليست هذه من المعاصى الفردية التى يقف ضررها عند صاحبها ، وإنما هى فتك بالجماعة فى مقوِّماتها وشعائرها ، ومن هنا كان من حق الحاكم المسلم ، أو من واجب الحاكم المسلم ، أن يحرق على المخمِّرين بيوتهم ، وأن يهدم على الخنازير وأصحابها حظائرهم ، وأن يطارد الجميع مطاردة الثائرين على الأمة ، العابثين بمنهاجها فى الحياة ، ذلك لهم خزى فى الدنيا ، ولهم فى الآخرة عذاب عظيم ، إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم » .

من غشنا فليس منا

« عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم مرّ برجل يبيع طعاماً فأعجبه فأدخل يده فيه ، فرأى بللا ، فقال : ما هذا يا صاحب الطعام ؟ قال : أصابته السماء . فقال : فهلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس ؟ من غش فليس منا ! »

* * *

التجارة باب من أبواب الكسب الطيب ، والرزق الحلال ، وقد نوّه الله بها ، وأمر بالانصراف إليها بعد الفراغ من صلاة الجمعة التي أمر الناس بترك البيع لأجلها « يأيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة ، فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ، فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون »

ولكن التجارة لا تقع موقعها عند الله ، ولا تكون ابتغاء من فضل الله ، إلا إذا توخى فيها أهلها جهات الصدق والإحسان ، والبعد بها عن أساليب الغش والخداع . أما إذا خالطها الجشع والحرص على الكسب من أي طريق كان ، فإنها تنقلب شراً ووبالا ، وتصير كسباً

خبيثاً غير مأمون العاقبة فى الدنيا، ومستوجباً لغضب الله فى الآخرة.

وقد أرشد النبي الكريم إلى ما يجب على التاجر أن يتحاشاه، وما يجب عليه أن يرعاه حتى يكون فى كنف الله، وينال المنزلة التى أعدت للتاجر الصادق: قال عليه الصلاة والسلام «التاجر الصدوق يحشر يوم القيامة مع الصديقين والشهداء» وأبرز ما يجب على التاجر أن يتحاشاه: الغشّ فى السلع، ويكون بإخفاء ما فيها من عيب، ينقص قيمتها أو يفسدها على المشترى، وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم حريصاً على أمته يخشى عليها أن تقع فى مخالب أرباب الغش والخداع، فكان يتفقد شئونها بنفسه، ويضرب المثل البارزة لأرباب الولايات ورؤساء المصالح فى الحرص على تعرف ما يجرى بين الأفراد من معاملات، وقد لمس بيده الكريمة ذات مرة بلل الطعام الذى سرّه مظهره وأغضبه مخبره، فأنكر على البائع أن يحتال فى تصريفه بوجه يخدع الأبصار جيّدُه الظاهر، ويخفى عنها عيبه الباطن، وقال له تحذيراً من مثل هذا الصنيع الممقوت تلك الكلمة الحازمه التى يجب أن يتخذها المؤمنون شعاراً فى معاملاتهم، وفى جميع أحوالهم: «من غشّ فليس منا» وفى مثل هذا يقول النبى صلى الله عليه وسلم: «لا يحل لأحد يبيع بيعاً إلا أن يبيّن آفته».

إن الصلة التى بين المؤمنين وبين نبيّهم ليست إلا صلة الإيمان، والإيمان أساس الأخوة الدينية بين المؤمنين، وقد كان مما يبايع

عليه النبي صلى الله عليه وسلم من يُسلم : النصح والإخلاص لكل مسلم فمن يُلَبِّس على أخيه ولا ينصح له طمعاً فى متاع زائل وكسب غير شريف ، فقد قطع بعمله هذا صلته بالرسول ، وعرَّض نفسه للخسران والدمار .

وإذا كان هذا شأنَ من يغش فى حفنة من طعام ، ويخدع عن درهم من مال ، فما بال من يغش ويخدع فيما هو أعظم من ذلك وأجل خطراً ؟

فينا الصانع الذى يدلس فى صناعته ، وفينا الصديق الذى يخدع أصدقاءه ، وفينا الزوج الذى يخدع زوجته ، وفينا الزوجة التى تخدع زوجها ، وفينا الأجير الذى يخدع صاحب العمل ، فينا هؤلاء ، وفينا من يخادع فى المصلحة العامة : يخادع نفسه ، ويخادع الناس .

كل هؤلاء كصاحب الطعام الذى غشّ فيه ، بل هم أشد منه خطراً وأعظم عند الله وزراً . فليرحم الناس أنفسهم ، وليحذروا الغش والخديعة فى جميع أعمالهم ونواحى حياتهم ، فذلك أجدر أن تدوم لهم أخوة الإيمان ، وتتوثق الصلة بينهم وبين رسول الإسلام ، « لقد جاءكم رسول من أنفسكم ، عزيز عليه ماعنتم ، حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم ، فإن تولوا فقل حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم » .

أصناف الحالفين بالله

« عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما « أن أعرابياً جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : يارسول الله .ما الكبائر ؟ قال : الإشراك بالله . قال : ثم ماذا ؟ قال : اليمين الغموس » .

« وعن أبى أمامة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من اقتطع حق امرىء مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة . فقال له رجل : وإن كان شيئاً يسيراً يا رسول الله ؟ قال : وإن كان قضيباً من أراك » .

* * *

الحالفون بالله أصناف :

صنف اعتاد من غير قصد إجراء كلمات اليمين على لسانه فى كثير مما يتكلم به ، فهو يقول : « لا والله ، بلى والله . إى والله » .

ومن هذا النوع ما يجرى عادة بين الناس من أيمان التكريم والتراحم وإظهار العناية والاهتمام : والله تأكل ، والله تشرب ، والله تتفضل ، والله أنا شبعان ، والله ما أقدر ، والله أنا مشغول ، وهكذا ...

مثل هذه اليمين رحم الله عباده فتجاوز عنها ، وعدها لغواً

لا إثم فيه ، لأن الحالف لم يعقد القلب على الكذب ، ولم يقصد إحقاق باطل ولا إبطال حق ، « لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ، ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان » .

ولكن البر — مع هذا التجاوز من الله والغفران — يقضى على المسلم بمراعاة تكريم اسم الله ، وعدم الزج به فى مثل هذه الشئون العامة ، وأن يعالج ما تعود عليه من ذلك ، حتى لا تجرى على لسانه ألفاظ الحلف ، وحتى يسمو بنفسه أن يقول ما لا يقصد .

وصنف من الناس يعلم واقع الشىء ، ولا يشك فيه ، ويحلف مع هذا العلم على خلافه ، يقصد سلب حق ، أو إقرار باطل ، أو إيذاء برىء عن طريق الدس عليه والكيد له ، أو التقرب إلى حاكم أو رئيس ، بتصوير الأمور له على غير وجهها ، تمشياً مع الأهواء والشهوات .

هذه اليمين سماها رسول الله صلى الله عليه وسلم بأسماء : سماها اليمين الفاجرة ، ويمين الزور ، ويمين الغموس : صاحبها فاجر يقتحم حمى الله عن قصد ، مزوّر ، يطمس الحقائق ، صاحبها لا كفارة له إلا الغمس فى جهنم ، وقد جعلها رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبائر ، ثانية الإشراك بالله ، فلينظر امرؤ لنفسه ، كيف يجمع عليها الفجور والزور والغمس فى النار مع العصاة والمشركين !

وصنف ثالث يحلف على الشىء يفعله أو لا يفعله ، ثم يتبين له

أن غيره خير منه ، وأن المصلحة تقضى بعدم التمسك بهذه اليمين : يحلف ليقطعنَّ أخته ، أو ليهملنَّ حق أبيه أو أمه ، أو ليهجرنَّ صديقاً ، أو لينتقمنَّ من برىء أو ليكفنَّ عن عمل الخير ، ثم يعود إلى رشده فيرى أن قطيعة الرحم ، أو هجر الصديق ، أو الانتقام بغير حق ، أو الكف عن عمل الخير ؛ أشد عند الله وأعظم إثماً من الحنث فى اليمين .

وهنا قضت رحمة الله أيضاً أن يفتح للتخلص من مثل هذا المأزق باباً يُطمئن النفس إلى عفو الله ، ويحقق المصلحة التى انكشفت بعد اليمين ، وفى ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليُكفِّرْ عن يمينه وليفعل الذى هو خير » .

أما الكفارة فهى « إطعامُ عشرةِ مساكين منْ أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحريرُ رقبةٍ ، فمن لم يجد فصيامُ ثلاثةِ أيام ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم ، واحفظوا أيمانكم كذلك يبيِّن اللهُ لكم آياتهِ لعلكم تشكرون » .

براءة الله من التجار المحتكرين

روى عن مَعْقِل بن يسَار ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من دخل فى شىء من أسعار المسلمين ليُغليَة عليهم كان حقاً على الله أن يقعده بعظم من النار يوم القيامة » يريد بمكان عظيم من النار.

ورُوى عن عمر قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « من احتكر على المسلمين طعامهم ضربه الله بالجذام والإفلاس ».

ورُوى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من احتكر حُكرةً يريد أن يُغلى بها على المسلمين فهو خاطىء » والحكرة حبس السلع عن البيع .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما : « من احتكر الطعام أربعين ليلة فقد برىء من الله وبرىء الله منه » .

***

أباح الله لعباده البيع والشراء ، وندبهم إلى التجارة ، وجعلها باباً من أبواب الكسب وتحصيل المعاش، ومنحهم حرية التصرف فى البيع والشراء ، مادامت الحال تسير فى سبيلها الطبيعى لا تكلف أحداً شططا ، ولا تُرهقه عُسراً ، فإذا انحرفت عن هذه السبيل ،

والتوت بالتجار عن طريق الاعتدال ، ودفعهم الجشع إلى حيث اللعب بالأسواق ، وانتهاز الفرص الملحة، وفتح لهم أبواب الغش والتدليس والإيذاء ؛ فهنا يحذرهم الرسول — وهو بهم رءوف رحيم — أن يلجوا هذه الأبواب، مذكراً إياهم بوخيم العاقبة التى تنزل بهم فى الدنيا والآخرة جزاء ما يقدمون عليه من إيذاء الناس والتضييق عليهم طمعاً فى أرباح هى الكساد بعينه . وهى المقت وسوء السبيل .

وقد جاءت هذه الأحاديث النبوية التى رويناها لكم تحذّر من الاحتكار وعاقبته ، والاحتكار هو حبس المواد التى تشتد حاجةُ الناس فى حياتهم إليها ، انتظاراً لغلاء السعر ، أو إغلاءً للسعر . وهو عام فى مواد الطعام والشراب والكسوة والعلاج وأدوات العمل من زراعة وصناعة وكل ما يضر بالناس حبسه ، وقد ذاق الناس الأمَرَّيْن من الاحتكار فى هذه السنوات الأخيرة ، ولا يزالون يصطلون بناره ، ويتقلبون فى جمره على الرغم مما اتخذته الحكومات المتوالية من نظام التسعير الجبرى ، وإعلان الناس بمراقبته، ونرجو أن يجد الناس فى هَدْى الرسول الكريم مايردعهم عن هذا الصنيع الممقوت ، فالنبى صلوات الله وسلامه عليه يُقرر أن الاحتكار ذنب يستوجب غضب الله على المحتكرين ، وأنه من الذنوب التى تُعجّل عقوبتها فى الدنيا ، والتى تقطع صلة الإنسان

بربه ، وحسب المحتكرين فى ذلك قوله صلى الله عليه وسلم فيمن احتكر : « ضربه الله بالجذام والإفلاس » وكأنَّ الجذامَ جزاءُ اقتطاعهم أرزاق الناس بغير حق ، والإفلاسَ جزاءُ طمعهم فى الغنى عن طريق لا خير فيه ، يؤذى الناس ويُفقرهم ، وحسبهم أيضاً قوله فى المحتكر : « بَرِىءَ من الله وبَرِىءَ الله منه » مع ملاحظة أن براءة الله ما جاءت فى القرآن لأحد من الناس إلا للمشركين الذين يعبدون غير الله .

فاللهم ارحم عبادك وطهرهم من فتنة هذه الحياة .

السماحة فى المعاملات

« روى البخارى عن جابر رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : رحم الله امرأ سهل البيع ، سهل الشراء ، سهل القضاء ، سهل الاقتضاء » .

* * *

ليس الإحسان مقصوراً على الصدقة ، والبر بالفقير ، ولكنّ له صوراً كثيرة ، يجدر بمن أراد الفوز برضا ربه ، والنجاح فى حياته أن يتتبعها ليعرفها فيأخذ بها ويترك أضدادها ، فقد يكون المرء محسناً فى ناحية ، ومسيئاً فى ناحية أخرى ، ومثل هذا يخشى أن تذهب إساءته بإحسانه فيصبحَ من « الأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً » .

تناول الحديث الكريم أنواعاً أربعة من الإحسان : السهولة فى البيع ، والسهولة فى الشراء ، والسهولة فى القضاء — يعنى فى أداء ما عليك للناس — ، والسهولة فى الاقتضاء — يعنى فى أخذ ما لك عند الناس — .

ودعا برحمة الله لمن أخذ بها ، ورحمة الله فى هذا المقام هى

ما يترتب على هذه السهولة من يسر الحياة ، واستقامة أمورها ، وما يتمتع به المرء فيها من حب واحترام .

فالسهولة فى البيع ، صفة يجب أن يتصف بها التاجر الذى يريد أن ينجح ، وأن يرحمه الله فيبارك له فى تجارته وربحه : يجب عليه أن يكون سَمْحاً قانعاً باليسير من الربح لا يَشْتَط ولا يَضِن بالسلعة على طالبها ، ولا يُخفيها ليوهمَ أنها عزيزة المنال .

ونفهم من هذا أن التاجر الذى يُقطب فى وجوه الناس ، أو يَحتكر ، أو يُغلى فى الأثمان، أو يخفى البضائع ، أو يلزم الناس بشراء ما لا يريدون مع ما يريدون — هذا التاجر بعيد عن رحمة الله، لا يصلح الله عمله، ولا يُنجح سعيه، ولا يبارك له فيما اغتصب، مهما حاز من مال ، ومهما لمَّ من ثروة ، وسيمحق الله ماله .

والمحقُ نوعان : نوع بإزالة المال ، ونوع بحرمان صاحبه — وهو فى خزائنه — من لذائذه . فتراه غنياً ولكنه مريض ، يفرض عليه الأطباء أدنى طعام ، ويحمونه أىَّ متاع ، وربما سلط الله عليه ولداً مفسداً متلافا ذا جرائم ومغامرات،إن أعطاه بدَّد، وإن منعه هدَّد ، فينغص عليه حياته ، ويكدِّر صفو نعيمه .

والسهولة فى الشراء صفة يتحلى بها من يهمه أن تحفظ كرامته ، وتلقى فى القلوب محبته ، من يهمه أن يُسرع الناسُ إلى مرضاته ، وقضاء حاجاته ، وإيثاره بالأجود الأفضل .

إن الله لا يحب ، ولا ينجح ، الماكسَ المماريَ الطامع فى مال غيره ، الحريصَ على أن يقتطع من البائع — وربما كان فقيراً ذا عيال — مليما أو درهما !

والسهولة فى القضاء : أن تُوَفى الدين إلى صاحبه كما أخذته ، وأن تحافظ على موعدك الذى وعدته ، وأن تمشى إليه ، ولا تكلفه أن يمشى إليك ، وأن تشكره ، وتسره بأنك انتفعت بماله ، وأن الله بارك لك فيه — عندئذ يحبك ويحترمك ولا يضن عليك بعدها بشىء ، ويُصبح ماله كأنه مالك !

أما ذلك الذى يَمْطل ظالماً ، ويسوف قادراً ، ويستثقل أداء ما عليه ، ويكلف دائنه جهوداً طائلة فى اقتضاء حقه ، فذلك لا يرحمه الله ، ولا ييسر له من يأخذ بيده فى الملمات !

والسهولة فى الاقتضاء : أن تسامح الموسر ، وتَنْظِر المعسر ، ولا تمن على صاحبك ولا تسيء إليه فى القول ، ولا تشعره بأنك خدمته أو آثرته على نفسك مع حاجتك ، ونحو ذلك مما يُحبط الأجرَ ، ويَذهب بالود ، ويكدِّر صفو الإحسان ، بل يقلبه سبباً من أسباب الحقد والكراهية والمقت ، من حيث لا يشعر الدائن ولا المدين ..

* * *

هذه أنواع من الإحسان فى المعاملة يرشدنا إليها رسول الله

صلى الله عليه وسلم، وقد كان هو مثلا لها، يأخذ نفسه بها، ويعرضها على أصحابه فى صور عملية رائعة : كان سهلا إذا أعطى ، سهلا إذا أخذ ، سهلا إذا قضى ، سهلا إذا اقتضى ، وقد كان الجفاة من العرب يقتضونه ما عليه فى خشونة وغلظة ، فيصبر عليهم ، وينهى أصحابه عن العنف عليهم، سماحةً منه صلى الله عليه وسلم وحلما وكرما.

والمعاملة هى محَكُّ الرجال ، والشاهدُ الذى لا ترد شهادته ولذلك قيل : إذا أثنى على الرجل جيرانه فى الحضر ، وأصحابه فى السفر ، ومعاملوه فى الأسواق ، فلا تَشُكُّوا فى صلاحه .

وشهد عند عمر رضى الله عنه شاهد فقال : ائتنى بمن يعرفك ، فأتاه برجل فأثنى عليه خيراً، فقال له عمر : أنت جاره الأدنى الذى يعرف مَدْخله ومَخْرجه؟ قال : لا . قال . فكنت رفيقَه فى السفر الذى يُستدل به على مكارم الأخلاق؟ قال : لا ، قال : فعاملته بالدينار والدرهم؟ قال: لا. قال أظنك رأيته قائما فى المسجد يُهمْهِم بالقرآن ، يَخفِض رأسه طوراً ، ويرفعه آخر. قال : نعم ! قال : اذهب فلست تعرفه !! ثم قال للرجل : اذهب فأتنى بمن يعرفك !

ثلاثة يقسم عليهن الرسول

« عن عمرو بن سعد الأنمارى أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ثلاثة أقسم عليهن : مانقص مال عبد من صدقة ، ولا ظلم عبد مظلمة صبر عليها إلا زاده الله عزاً ، ولا فتح عبد باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر » .

* * *

كثير من الناس ينظر إلى الأمور نظرة سطحية عابرة فينخدع بظواهرها ويغتر بصورها ، ويُرتب حياته وأحكامه على هذه الظواهر والصور، ولو كلف نفسه شيئاً من التعمق والتأمل والتروى لتجلى له وجه الحق فيها ، ولتغير حكمه عليها فهُدى إلى سبيل الرشاد.

ومن هذه الأمور التى يتوهم فيها الناس ما يخالف حقيقتها ؛تلك الثلاثة التى يقسم عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليزيل أوهام الناس فيها ، ويرشدهم إلى وجه الحق فى شأنها :

هؤلاء الأغنياء الذين أمدهم الله بالأموال فلذّ لهم أن يحرصوا عليها ، وأن يربوها ويزيدوها، وهم يشفقون من فتح أى باب ينقصها، أو يحول بينهم وبين لذتهم فى زيادتها وتنميتها ؛ فينظرون إلى

الصدقات كأنها مغارم ، وإلى الفقراء كأنهم أعداء مسلطون على أموالهم ، يحاولون استلابها منهم ، وانتقاصها من خزائنهم وأيديهم ، لذلك ينفرون من الصدقات ، ويُشيحون بوجوههم عن الفقراء ، ولو تأملوا لعلموا أن الصدقة تربى المال وتباركه « يمحقُ اللهُ الرِّبا ويُربى الصدقات » . « وما أنفقتم مِنْ شيءٍ فهو يخلفه » . وإن الفقير الذى تفرج ضائقته بالقليل من مالك ، ليحتفظ فى نفسه لك بما هو أسمى من المال ، فربما جاد بنفسه فى سبيل حياتك أو حياة أحد من أهلك ، وربما دفع عن مالك من الشر مالا تقدر على دفعه ، فإن « صنائع المعروف تقى مصارع السوء » .

وهؤلاء الذين يستقبلون المظالم بالجزع والهلع فتفسد نفوسهم ، ويضعف احتمالهم ، ويتزعزع إيمانهم ، وتضطرب عليهم حياتهم ؛ فلا تثبت لهم قدم ، ولا يستقر لهم حال — هؤلاء ينظرون فقط إلى أن ظلماً حاق بهم ، وأنهم عاجزون عن دفعه ، وأنه قد قضى عليهم بالذل والهوان ، وينسَوْن أن الله هو رب المظلوم ومولاه ، وأنه يمهل الظالم ولا يهمله ، فإذا وثق المظلوم بوعد الله ، فأجدر به ألا يجزع وألا يضطرب وألا يُفسد على نفسه حياته ، أجدرْ به أن يسير فى طريقه صابراً محتسباً ، فستكون له العاقبة ، وستكون له العزة والنصرة .

وهؤلاء الذين يسألون الناس إلحافاً ، ولا أريد المساكين الذين

تردهم اللقمة أو اللقمتان ، ولكن أريد الذين يُريقون ماء وجوههم أمام الرؤساء وأصحاب الجاه ، فى سبيل منصب يَرقون إليه ، أو درجة يحصلون عليها ، أو علاوة ينالونها ، غير متوسلين بكفاية ، أو جد فى عمل ، أو غيرة على مصلحة — هؤلاء هم شر أصحاب المسألة .

وإذا كانت القوانين قد أبت إلا أن تمنع التسول فى الشوارع والطرقات ، فأولى لها أن تمنع التسول أمام الرؤساء ، واتخاذ الوسطاء والشفعاء ، وإن التسول لأخذ مال من فرد ، لأهون من كثيراً من هذا التسول على الدولة ، وليعلم الذين يستسيغون لأنفسهم ذلك أنهم يعرضون أنفسهم لأبواب من الفقر ، وأبواب من الذل ما كان أغناهم عنها لو كانوا يعقلون ، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول : « لا تزال المسألة بأحدكم حتى يَلقى اللهَ وليس فى وجهه مُزْعة لحم » .

اكتتاب للفقراء يدعو إليه الرسول

فى حديث رواه مسلم عن جرير بن عبد الله رضى الله عنه ، أن قوماً من مضر أقبلوا على الرسول صلى الله عليه وسلم فى صدر يوم من الأيام ، وقد بدت عليهم أمارات الفقر والفاقة ، يضعون على أجسادهم قطعاً لاتكاد تسترها حتى لكأنهم عرايا ، فتغيّر لذلك وجه الرسول صلى الله عليه وسلم وبدا عليه الغضب الشديد ، وعز عليه أن يرى قوماً من المسلمين تتملكهم الفاقة إلى هذا الحد ، وقد جعل الله لهم حقوقاً فى أموال إخوانهم الأغنياء ، فرؤى صلى الله عليه وسلم يومئذ مهتماً قلقا ، يدخل ويخرج ، ويقوم ويقعد ، ثم أمر بلالاً أن يؤذن فى الناس فأذّن بلال ، وحضر الناس ، وأقيمت الصلاة ثم خطب فقال : « يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ، إن الله كان عليكم رقيباً » « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ماقدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ، ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، أولئك هم الفاسقون ، لايستوى أصحاب النار

وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون » ألا فليتصدق رجل من ديناره ، من درهمه ، من ثوبه ، من صاع بُره ، من صاع تمره . إلى أن قال « ولو بشق تمرة » فجاء رجل من الأنصار بصرّة كادت كفه تعجز عنها بل قد عجزت ، ثم تتابع الناس حتى تجمع كومان من طعام وثياب فتهلل وجه النبي صلى الله عليه وسلم لما رأى من تلبية ندائه ، واستجابة دعوته ، وقيام الأغنياء بحق الفقراء ثم قال : « من سنّ فى الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن يَنقُص من أجورهم شيء ، ومن سنّ فى الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن يَنقُص من أوزارهم شيء » .

* * *

لعلّ هذا — أيها السادة — أول اكتتاب مالى فى الإسلام لمحاربة الفقر والعوز قام بالدعوة إليه رسول كريم ، عزيز عليه ماعنتم ، حريص عليكم ، بالمؤمنين رءوف رحيم ، لم يطق صبرا على رؤية هذا المنظر المؤلم ، منظر العرى والضعف والهزال ، وفى المسلمين أموال ، وبين المسلمين رحم من أب واحد وأم واحدة ، يتقاضاهم حقوقاً لبعضهم على بعض ، ولهم رب واحد هو عليهم رقيب ، وأمامهم يوم لاينفع فيه نفساً إلا ماقدمت من خير : اهتم الرسول صلى الله عليه وسلم لهذا المنظر ، وبرز هذا الاهتمام فى دخوله مرة

وخروجه أخرى ، وتغيُّرِ وجهه مما يدل على أنه كان ينظر إلى الأمر كأنه نازلة عامة بالمسلمين . ثم فى أمره بلالاً بالأذان وجمع الناس . وفى تقديم الصلاة قبل الكلام ، وفى تذكير الأغنياء القادرين بل أرباب الدينار الواحد ، والدرهم الواحد ، والصاع الواحد ، بالرحم التى بين الغنى والفقير، ثم بالتهلل والاستبشار حينما رأى الاقبال على تلبية دعوته فى هذا الاكتتاب .

وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الصنيع وأمثاله من الدعوة إلى الخير ، والاستجابة إليها ، سنّة حسنة يستوجب بها صاحبها أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم الدين ، كما أن الإعراض عن دعوة الخير، وعن تلبية الداعى، سنة سيئة يستوجب بها صاحبها وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم الدين .

إنشاء الملاجىء سنة حسنة، إنشاء المستشفيات سنة حسنة، إنشاء معاهد العلم سنة حسنة ، الدعوة إلى التآلف والتحاب سنة حسنة ، الإصلاح بين الناس سنة حسنة، تأليف الجمعيات الخيرية سنة حسنة .

والإعراض عن مثل ذلك أو التثبيط عنه سنة سيئة: شح الأغنياء عن الاكتتاب فى النوازل سنة سيئة . الاهتمام بالشخصيات وترك النظر فى المصالح العامة سنة سيئة، إذكاء الخصومات، وتأريث العداوات بين الناس سنة سيئة ، انتهاز الفرص للإيقاع والدس سنة سيئة . نسأل الله أن يلهمنا سنن الرشاد ، وأن يجنبنا سنن السوء والفساد .

الصدقة في هدى الرسول

« عن أبي موسى الأشعرى رضى الله عنه — عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « على كل مسلم صدقة كل يوم . قالوا : يانبي الله فإن لم يجد ؟ قال : يعمل بيده فينفع نفسه ويتصدق . قالوا : فإن لم يجد ؟ قال : يعين ذا الحاجة الملهوف . قالوا : فإن لم يجد ؟ قال : فليأمر بالمعروف ، وليمسك عن الشر . قالوا : فإن لم يفعل ؟ قال : فليمسك عن الشر فإنها له صدقة » .

* * *

يظن كثير من الناس أن الصدقة التى أعد الله لصاحبها جزيل الخير فى الدنيا والآخرة هى خصوص إعطاء الفقير ما يحتاج اليه من طعام يقيم أوده، أو كسوة تحفظ جسمه، أو مال يدفع حاجته ، وأنها لذلك لا تكون إلا من غنى يفضل ما له عن تكاليف أسرته ومن تجب عليه نفقته ، ولكن الرسول صلوات الله وسلامه عليه يقرر ن المسلم — كيفما كان غنياً أم فقيراً ، قوياً أم عاجزاً — مطلوب منه أن يتصدق كل يوم ، وأن الصدقة أنواع كثيرة ، وجهات من البر متعددة : فبذل الغنى ماله للفقراء صدقة ، وعمل الفقير لتحصيل رزقه ورزق أولاده ونفع المحتاجين صدقة ،

ونصر المظلوم ، والتفريج عن المكروب صدقة ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والبعد عن الشر وإيذاء الناس صدقة، فالمسلم فى رأى الرسول نفاع على الدوام بقدر ما يستطيع ، وقد جاء فى حديث آخر : كل سُلامَى من الناس عليه صدقة — يريد كل مفصل من مفاصل الأعضاء — ، كل يوم تطلع فيه الشمس فتعدل بين اثنين صدقة ، وتعين الرجل فى دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة ، والكلمة الطيبة صدقة ، وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة ، وتميط الأذى عن الطريق صدقة .

* * *

فيأيها المسلم : إن مجال الخير أمامك واسع ، وطرق المثوبة عند الله كثيرة ، فعليك أن تتدبر هذا الهدى النبوى الكريم ، وأن تقصد من أعمال الخير إلى ماتستطيع فإن لم تجد إلى عمل الخير سبيلا فبحسبك أن تكف عن الشر ، ولا يهولنك فقر لا يمكنك من العطاء ، ولا عجز يحول بينك وبين العمل ، فقد بيَّن لك الرسول أن الكف عن الإيذاء سبيل للرضا والطمأنينة وعظيم الأجر والمثوبة .

الأرزاق والصدقات

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: « إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم ، وإن الله عز وجل يُعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطى الدين إلا من أحب ، فمن أعطاه الدين فقد أحبّه ، والذى نفس محمد بيده ، لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه ولا يؤمن حتى يأمن جارُه بوائقه — قيل يارسول الله وما بوائقُه قال : غشَمه وظلمه — ، ولا يكسبُ مالاً من حرام فينفُق منه فيُبارَكَ فيه ، ولا يتصدقُ به فيقبلَ منه ، ولا يتركُه خلف ظهره إلا كان زادَه إلى النار . إن الله لا يمحو السيء بالسيء ، ولكن يمحو السيء بالحسن ، إن الخبيث لا يمحو الخبيث » .

* * *

حديث جليل الشأن . عظيم الاتصال بالحياة العملية ، ونبراس يهتدى به من يلتمس رضا الله فى الدنيا والآخرة .

إن الله لم يضن بالرزق على أحدٍ من خلقه : الكافر والمؤمن ، والحيوان والإنسان فى ذلك سواء « وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها » . وإن الأرزاق فى سعتها وضيقها ليست دليلا على حب من الله أو بُغض ، فهو سبحانه يعطى الدنيا من أحب ومن

لايحب ، ولـكنه لا يعطي الدين والخلق الفاضل ، إلا من أحب ، فهما النعمة الـكبرى التي يُسعِد بها عبادَه المحبوبين، وإذن فلا يبتئس فقير بفقره ، ولا يَتخذْ منه دليلا على غضب الله عليه ، ولا يَفرحْ غني بغناه، ولا يَتخذْ منه دليلا على رضا الله عليه ، وحبه إياه ، وليفرح الفَرَحَ كله ، من سلم قلبُه ، وسلم لسانه ، وحَسُنَ خلقه ، وعاشر الناس بالمعروف ، وأمِنَ جارُه مظالمه ، وليحزن الحزنَ كله من فسد قلبه ، واعتل لسانه ، وساء خلقه ، وتركه الناس اتقاء شره .

ألا وإن المال الحرام لا يبارك الله فيه فيدفع عن صاحبه شراً أو يجلب له خيراً ، ولا يقبل التصدق به فيحوز به مثوبة عند الله، ولا يكون عُدَّةً إلى خير بعد موت صاحبه . وإذن فليعلم الذين يكسبون المال من الحرام أنهم لا يكسبون إلا الضياع والخسران ولو شيدوا القصور، وليعلم الذين يتخذون الوسائل المحرمة كالقمار والرشوة والبغاء والربا لتحصيل الأموال ثم يتصدقون بها أن صدقاتهم عليهم مردودة ، فإن الله طيب لا يقبل إلا طيباً ، ويخدع نفسه من يظن أن الخبيث يدفع الخبيث ، وأن السيء يمحو السيء ، فلا يمحو السيء إلا الحسن .

« إن الحسنات يذهبن السيئات . ذلك ذكرى للذاكرين » .

وضع الإحسان فى مواضعه

« عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليس المسكين الذى يطوف على الناس ترده اللقمة واللقمتان ، والتمرة والتمرتان ، ولكن المسكين الذى لا يجد غنى يغنيه ولا يُفطَن به فيُتصدقَ عليه ، ولا يقوم فيسأل الناس ! ».

* * *

حالتان مشتبهتان فى أمر الاحسان ، يخطىء فيهما كثير من الناس ، ويترتب على الخطأ فيهما ضرر عظيم : حالة السائل الذى يمد يده إليك ، ويلقاك فى طريقك أو يقف على باب بيتك ، فيطلب منك العطاء بادى الذلة والمسكنة والفقر والمتربة ، وحالة المسكين المتعفف الذى ينطوى عليه بيته ، وتضنيه حاجته ، ويعصرد فقره ، وهو مع ذلك ذو حياء لا يبذل ماء وجهه ، ولا يعرض كرامته لذل السؤال أعطاه الناس أو منعوه !

قد يُظن الأول فقيراً ، ويحسب مسكيناً فتبذل له الصدقات ، وهو فى حقيقة أمره متسول طماع جماع ، قد اتخذ ذلك حرفة وأتقنها وبرَّز فيها ، وأعد لها مظاهرها ووسائلها ، بل قد يكون لصاً فى ثياب شحاذ ، أو مجرماً يعيث فى الأرض الفساد ، وقد يُظن

الثانى غنيا ، لأنه مع فقره حريص على حياته وعفته ، يؤثر الكرامة على الاستجداء ، بل لعله يُعطى فيرفض العطاء .

كم فى المجتمع من أمثال الأولين ، وكم فيه من أمثال الآخرين ، والناس فى حاجة إلى التحرى فى شأن الإحسان لئلا يقعوا فى خطأ من إحدى الناحيتين ، فإن الخطأ فى واحدة منهما يسىء إلى الأمة ويفسد حال المجتمع : نعطى من لا يستحق فيضرَى كما تَضْرى الوُحوش والكلاب ، ويستمرىء هذا الكسب الهين الذى لا يبذل فيه جهداً ، ولا يقدم فى مقابله للأمة عملا ، وحينئذ يشيع التبطل ويخيم الكسل ونخلق بأنفسنا بيئة فاسدة هى عش للمنكر والفساد تبيض فيها الجريمة لحسابنا وتفرخ وتستنبت فتربو على مدى الأيام ، وتذوق منها الأمة أعظم الويلات ؛ ونحرم فى نفس الوقت من يستحق ، فإذا الفقر يمسك بتلابيبه ، وإذا الحاجة تشد خناقه ، فإما أن يذوب ذوبانا ، ويموت موتاً سريعاً أو بطيئا ، وإما أن يثور على المجتمع ، ويضطغن على الناس ، ويرى الحياة فى لونها الأسود القاتم لا تستحق شيئا ، وحينئذ ينتقم من المجتمع ، ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد !

لذلك عنى القرآن الكريم ببيان مصارف الزكاة والصدقات ، وتحديد مستحقيها من الفقراء والمساكين وذوى القربى واليتامى والأسرى والغارمين وغيرهم ، وأعطانا علامة الفقراء الذين يستحقون الإحسان « يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافا » .

وكذلك فعل الرسول الكريم فأرشدنا إلى أن هؤلاء المتسولة الذين يمدون أيديهم لينالوا اللقمة أو التمرة، أو بحسب عرفنا الحاضر لينالوا المليم بعد المليم، ليسوا بالمساكين، إنما المسكين هو الذى عضه الفقر بنابه، ولم يفطن إليه فانطوى على نفسه وحيداً فى عُقر بيته.

وكم فى البيوت من أمثال هؤلاء الذين يصفهم الرسول! كم فى المجتمع من أمثال هؤلاء الذين نسيهم المجتمع، فهم يعيشون مجهولين محرومين بين محبسين من فقر وحياء، وتعفف وشقاء.

لمثل هؤلاء يكون الإحسان لا للمتسكعين فى الشوارع والطرقات، ولا للذين يهينون القرآن بقراءته على الأرصفة وأمام المساجد وفى القطارات، ولا الذين ينشدون أناشيد «الحمد لرب مقتدر» و«لا تكثر لهمك ما قدر يكون»، ولا الذين يلاعبون القرود وغيرها من أصناف الحيوان، ولا للذين يؤدون الألعاب البهلوانية التى تعتمد على القوى الجسمية أو خفة الحركات، ولا للذين يطوفون على القرى والكفور طلباً للعادات فى المواسم وأوقات المحصولات. إلى غير ذلك.

وقد يقال: أن معرفة هؤلاء المتبطلين سهلة يسيرة، ولكن معرفة المتعففين صعبة عسيرة لأنهم يستخفون ويستحيون، والواقع أن ذلك سهل لمن أراد إن لم يعرفه المرء بنفسه؛ عرفه بأصدقائه أو

بأقربائه أو معارفه ، فليحاول كل منا — بمقدار ما يستطيع — أن يجمع بين ثواب الإحسان ، وثواب الإحسان فى الأحسان !

ابحث عن تلميذ عاجز عن متابعة دراسته لفقره ، ابحث عن امرأة تربى أيتاما ، تصدق على بائع صغير ذى عيال وفى يده تجارة تقدر بالملاليم أو القروش ، أنقذ مديناً لا يجد ما يسد به دينه من أسر هذا الدين ، أعن على دواء مريض محتاج . احمل ابن سبيل قد انقطع به الطريق وهكذا .

إياكم والمنّ بالمعروف

« عن أبي ذر رضى الله عنه : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ، ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم » قال أبو ذر : فقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرار ، فقلت : خابوا وخسروا ! من هم يا رسول الله ؟ فذكرهم وعدّ منهم المنان » .

وفى بعض طرق مسلم: « المنان هو الذى لا يعطى شيئا إلا منه » أى تحدث به للناس أو ذكّر به من أعطاه إياه .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إياكم والامتنان بالمعروف فإنه يبطل الشكر ويمحق الأجر » .

* * *

لا يقع المعروف موقع القبول من الله ، ولا يؤدى ما يرجى منه فى العادة من نشر المحبة والتراحم بين الناس ، إلا إذا صفا من المكدرات ، وسلم من المنغصات ، وأريد به وجه الله !.

كثير من الناس يصنع المعروف، ويكون معروفه عظيما: ينقذ بائسا من بؤسه، يواسى فقيراً بماله، يعالج مريضاً بطبه ، يعين محتاجا

بجاهه ونفوذه ، ينشر بين الناس علمه، يخدم وطنه، يدعو إلى دينه ، يؤازر الحق، يقاوم الباطل، ينادى بالإصلاح ، كل ذلك معروف وإحسان ، ولكنه يُتبع ما فعل بما يكدره ، ويُذهب روعته ، ويخل بجماله وجلاله : يمنُّ على من أحسن إليه بمعروفه ، فيُسمعه ألفاظاً من شأنها أن تجرح عزته ، وتسىء إلى كرامته ، وربما رتب لنفسه حقوقا على من أحسن إليه بمجرد الإحسان ، فتراه ينتظر منه أن يخدمه ، ويقضى حاجاته ، وأن يكون لسانا له فى كل مجلس ، يثنى عليه ، ويُشيد بذكره ، ويدفع عنه ، ويصادق من من يصادق ، ويخاصم من يخاصم ، فإذا حاد عن ذلك أو قصر فى شىء منه، عده منكراً للجميل، وقطع عنه ما أمر الله به أن يوصل!

ومن هؤلاء من يمنُّون على أوطانهم، ويؤذون أممهم أوطوائفهم التى ينتسبون إليها ، فترى الواحد منهم إذا أدى خدمة لوطنه ، أو قام بعمل نافع لفريق من أبناء أمته ، ظن أنه بذلك صار بطلا من أبطالها يستحق أن تنسج له ثياب الحمد والثناء ، وأن تشيد بإحسانه كل صباح ومساء ، وأن تمنحه كل ما تصبو إليه نفسه من مكافأة وجزاء ، فإذا لم تفعل تغير عليها قلبه ، واتهمها بأنها أمة جاحدة لا تقدُر الرجال ، ولا تعرف الجميل !

هذا هو المن الذى يفسد المعروف، وهذه بعض صوره ، وقد بين لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنه يبطل الشكر ويمحق

الأجر ، لأنه يقلب الإحسان والمعروف تجارة أو إجارة يُلتمس بها الجزاء عند الناس لا عند الله ، وقد كان من أول مانهى الله عنه رسوله الكريم عدمُ المن : « يأيها المدثر قم فأنذر ، وربك فكبر وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر ، ولاتمنن تستكثر ، ولربك فاصبر » فانظروا كيف كان النهى عن المن من أوائل ما نزل من القرآن ، وكيف وضعه بين أمر الرسول بالإنذار والتكبير والتطهير وهجر الرجز والاعتصام بالصبر ، وتلك أسس الدعوة ووسائلها .

ويقول الله عز وجل « الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون. قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غنى حليم . يأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر »

إن المخلص لا يضيره أن يعترف الناس به أو يجحدوه ، لأنه يريد الله ، ومن أراد الله لم يلتمس الجزاء إلا من الله !

وقد كان أبو بكر رضى الله عنه يتصدق على مسطح ، فلما آذاه فى قصة الإفك باتهام عائشة رضى الله عنها ؛ رآه غير أهل لإحسانه لأنه قابله بالإساءة والظلم ولم يتعفف عن الخوض فى عرضه مع الخائضين ، فآلى على نفسه أن يعاقبه بقطع هذا الإحسان ، ولكن الله — جلت حكمته — لا يحب الإحسان المعلل ، ولا يرضى إلا

أن يكون خالصاً لوجهه أولا وآخراً ، فأنزل قوله « ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة » يعنى ولا يحلف أولوا الفضل منكم والسعة ويمتنعوا « أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ؟ » .

وحينئذ ثاب أبو بكر إلى ما هو أولى به من الصفح والمغفرة فقال : بلى يارب أحب أن تغفر لى وعاد إلى ما كان عليه مع مسطح !

فأى سموّ مثل هذا السموّ ؟

obeikandl.com

المرء على دين خليله

« عن أبي هريرة رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : المرء على دين خليله ، فلينظر أحدكم من يخالل » .

وعن أبي موسى الأشعرى رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إنما مثل الجليس الصالح ، والجليس السوء ، كحامل المسك ونافخ الكير[1] ، فحامل المسك أما أن يُحذِيَك[2] وإما أن تبتاع منه ، وإما أن تجد منه ريحاً طيبة ، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك ، وإما أن تجد منه ريحاً خبيثة » .

* * *

للبيئة تأثير على النفوس ، وسلطان على القلوب ، وكم رأينا من نفوس صالحة خيرة ، أفسدتها البيئة الفاسدة ، وكم رأينا من قلوب مريضة أبرأتها البيئة الصالحة ، والرسول صلى الله عليه وسلم يقرر هذا المعنى فى تلك العبارة الموجزة « المرء على دين خليله » ثم يرتب على ذلك نصيحة غالية لها أثرها فى حياة الفرد والجماعة فيقول : « فلينظر أحدكم من يخالل » لينظر المرء مَن حوله من الناس . فلا

---

(١) الكير : منفخة الحداد .

(٢) يحذيك : يهديك .

يتخير لصحبته ، ولا يؤثر بصداقته ، إلا أرباب النفوس الطيبة ، والخصال الشريفة ، إن احتاج إليهم أعانوه ، وإن كبا أنهضوه ، وإن ضل أرشدوه ، وإن اعوج قوموه ، فإنه حينئذ يكون قد اختار لنفسه فأحسن الاختيار ، ولينظر المرء لأولاده وأسرته ، فلا يتركهم يتخبطون فى صِلاتهم وصداقاتهم ، فرب أخ سوء جرّ صاحبه إلى مباءة شر وفساد ، فقطع عليه سبيل الحياة السعيدة ، ورب أسرة زينت أساليب الغواية والاعوجاج لأسرة لم تكن تعرف سبيل الغواية والاعوجاج ، ولينظر كل رئيس فى مصلحته إلى بطانته التى يصطفيها ، ويضع ثقته فيها ، وينظر الأمور بعينها ، ويستمع إلى الأخبار من ألسنتها ، لينظر كل رئيس إلى بطانته وخاصته ، فإن علم أنهم يستسيغون الكذب على الناس ؛ لم يأمنهم على الحق ، وإن علم أنهم صغار النفوس ، أصحاب أهواء وأغراض ؛ لم يوافقهم على أهوائهم وأغراضهم ، وإن رأى فيهم ميلا إلى الظلم ، والإيقاع بالأبرياء ، وتدبير المكائد ، وشغل الناس بها عن مصالحهم ؛ بادر إلى نبذهم ، وتخليص نفسه أولا ، والناس ثانياً ، من شرهم ، فإنه عن أعمالهم مسئول قبل أن يسألوا ، وبجرائمهم مأخوذ قبل أن يُؤخذوا ، وسيحترق بنارهم ، أو يختنق بريحهم « ولا تركَنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون » « ومن يتولهم منكم فإنه منهم ، إنّ اللهَ لا يهدى القوم الظالمين » .

وإذا كان حقاً على الرئيس أن يتخير بطانته ، ويصطفى خاصته ، وأهل مشورته ، فإن على هؤلاء الأصدقاء المصطفين واجباً ، هم عنه أمام الله مسئولون، فهى أمانات قد حُمِّلوها « إنَّ الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها » .

عليهم أن يراقبوا ربهم ، وأن يخلصوا لله فى أعمالهم وفى نصحهم وفى مشورتهم ، وألا يلبسوا الحق بالباطل ، وألا يكتموا الحق وهم يعلمون ، وألا يميلوا مع الأهواء والشهوات ، وأن يجعلوا من أنفسهم بذلك بيئة تعين رئيسهم على الخير ، وتضىء أمامه سُبُل العدل والرشاد ، وليجد منهم ريحاً طيبة ، يشرح الله بها صدره ، وينجح بها أمره ، بذلك يسعد الناس وترفرف عليهم أعلام السكينة والأمن والاستقرار .

الحب فى الله

« عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ماتحابّ اثنان فى الله تعالى إلا كان أفضلهما أشدُّهما حباً لصاحبه »

* * *

لابد للانسان فى هذه الحياة من صديق مخلص يبادله المحبة والوفاء ، ويفزع إليه عند الشدائد والملمات ، ويتذوق فى ظلال أخوّته لذة التعاون والنصرة ، ويفضى إليه بذات نفسه ، ومكنون سره ، ويشعر إلى جانبه بالطمأنينة والأمن والرضا والهدوء !

إذا أنعم الله على أحد من الناس بمثل هذا الصديق ، فقد هوّن عليه نصفَ أعباء الحياة ، ذلك بأن الحياة سفر طويل شاق ، ولابد فى السفر من رفيق مؤنس يعين عليه ؛ وإلا كان سفرا موحشا ثقيلا على النفس غير محتمل الأعباء والتكاليف !

ولا تدوم الصداقة ولا تثمر ثمراتها إلا إذا كانت فى الله : اللهُ وجهتها ، واللهُ غايتها ، أما الذى يصادقك لمالك إن كنت ذا مال ، أو لجاهك إن كنت ذا جاه ، أو لعرض من أعراض الدنيا يلتمسه من وراء صداقتك فليس هذا بصديقك ، وإنما هو

رجل يبحث عن مصلحته أنّى وجدها، وينقلب معها كيفما تقلّبت!

لذلك يُعلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من شأن المحبة فى الله، ويوصى كلا الصاحبين بأن يخلص فى حبه لصاحبه، فإن أشدهما حبا وإخلاصا هو أفضلهما وأقربهما عند الله منزلة. وقد نوّه رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذا الشأن فى أحاديث أخرى: جعل من علامات المؤمن أن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وعدّ من السبعة الذين يظلهم الله يوم القيامة فى ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله، شابين تحابا فى الله اجتمعا عليه، وافترقا عليه.

وقد كان لكل نبى أصحاب فى الله وحواريّون، شدّ الله بهم أزره، وقوّى بهم دعوته، وأعانه على خصومه. وأول صاحب لسيدنا ومولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم: أبو بكر الصديق: آمن به وقد كذبه الناس، وهاجر معه، وفداه بنفسه وماله، وظل وفيا له فى حياته وبعد مماته، لم تزلزله فتنة، ولم تفسده دنيا، ولم يغره سلطان، ولذلك سماه الله صاحبا. وسجل صحبته فى كتابه العزيز حيث يقول: إن لا تنصروه فقد نصره الله، إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين، إذ هما فى الغار، إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا، وما ظنكم باثنين الله ثالثهما؟

* * *

هذه هى الصحبة، وهذه هى الأخوّة فى الله، وإذا تتبعنا التاريخ

وجدنا بجانب كل مصلح وكل داع إلى الخير ، إخوانا له فى الله ، لولا مؤازرتهم إياه لم ينجح ، ولولا إخلاصهم لدعوته لم تثمر !

وليس الحب فى الله كلمة تقال ويدعيها المدَّعون ، وإنما الحب فى الله أن يكون الله وجهتَك حين تحب ، وأن يكون الله غايتَك حين تستمر على هذا الحب .

ليس من الحب فى الله أن تصادق صاحبك مادام فى نعماء وسراء ، فإذا تخلت عنه نعماؤه تخليتَ عنه وتركته وحده يعانى بأساءه وضراءه .

ليس من الحب فى الله أن تصادق صاحبك مادام ذا جاه ، فإذا زال الجاه زلت عنه وفررت منه !

ليس من الحب فى الله أن تحترم صاحبك مادام معك ، فإذا غاب عنك فمزَّقتَ جلده ، وتناولت عرضه .

ليس من الحب فى الله أن يجتمع الصاحبان على معصية الله ، وأن يتآزرا على هتك حرمات الله !

ليس من الحب فى الله أن تدع صاحبك يرتطم فى أخطائه ، أو تغطى عنه عيوبه بحجة الرفق به ، والخوف على صداقته !

* * *

هذا هو الحب فى الله ، والحب فى الله يدوم لدوام الله ، والحب فى الله جميل لأنه مظهر لجمال الله . « وما كان لله دام واتصل ، وما كان لغير الله انبت وانقطع » .

خير ما يُهدى

عن ابن عمر رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ما أهدى المرء المسلم لأخيه هدية أفضل من كلمة حكمة يزيده الله بها هدى ، أو يردُّه بها عن رَدَى .

* * *

الإسلام صلة بين أهله يوجب عليهم أن يعتبروا أنفسهم وحدة متماسكة متعاونة ، ينصح بعضها بعضا ، ويرشد بعضها بعضا ، كأنهم أبناء أسرة واحدة ، أفرادها أخوة متحابون ، وقد صرح القرآن الكريم بهذه الأخوّة بين المؤمنين فى غير موضع : « إنما المؤمنون إخوة » « فمن عفى له من أخيه شىء فاتّباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان » « أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه »

والمؤمنون مكلفون أن يوطدوا بينهم دواعى الألفة ، ويوثقوا روابط المحبة ، وأن يعتبر كل منهم مصلحة أخيه مصلحة له ، وما يصيبه من ضرر كأنه أصابه ، كمثل الجسد إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى .

وأهم ضمان تتحقق به مصلحة هذه الأسرة الواحدة المتماسكة

أن يبذل كل واحد منهم لأخيه النصح والإرشاد: يأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر، ويُهدى إليه الحكمة والموعظة الحسنة، فإما أن يزيده الله بها هدى، أو يردَه بها عن رَدَى.

إن الأخ المحب لأخيه هو الذى يستطيع أن يكون مرآة صادقة له، يرى فيها محاسنه كما هى دون مبالغة ولا تفخيم، ويرى فيها عيوبه كما هى دون تهويل ولا تضخيم. بذلك توضع الأمور فى مواضعها، وتوزن الأعمال بموازينها، ويستفيد المجتمع كله بما يفشو فيه من خير، ويستريح كله لما اقتُلع منه من فساد وشر.

ولكن النصح والإرشاد له آداب يجب أن ترعى، فإنها إذا أهملت أنتجت عكس المقصود، وفتحت أبوابا من الشر لا يعلم مداها إلا الله، ولذلك يرسم الرسول الكريم، صلوات الله وسلامه عليه، لأمته الطريق السديد الذى يوصل إلى الغاية دون شر يخالطه: ذلك أنه حين يأمر بالتناصح يعبر عنه بأنه هدية من أخ إلى أخيه فنعلم من ذلك أنه يجب أن يقدَّم النصحُ فى لطف وحسن ذوق واحتشام كما هو شأن الهدية، لا أن يُلقى به فى وجه صاحبه فى غلظة وجفوة واجتراء، فكم من نصيحة غالية يرفضها من قدمت إليه غير آسف عليها، لأنها قدمت له فى ثوب كريه، وبصورة تمجها الأذواق السليمة، والطباع المستقيمة.

ولقد وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا النصح أيضاً بأنه كلمة حكمة ، ولا يكون الكلام حكمة حين يجافى اللباقة وحسن الأداء ، وهذا شأن عام فى كل نصح وإرشاد .

وقد أدب الله بهذا الأدب العالى نبيه الكريم فى مثل قوله تعالى « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » فكان صلى الله عليه وسلم مثال الناصح المتصرف لايعنف على أحد ، ولا يسب أحداً ، ولا يضخم ذنباً ، ولكن يرشد إلى الصواب فى رفق واحتشام ، وكثيراً ما كان يستعمل التورية أو يخاطب الجميع بقوله: بلغنى أن فيكم من عمل كذا ، وما بال أقوام يفعلون كذا ، لأنه يكره أن يواجه أحداً باللوم والتعنيف ، وقد فتح الله بهذا الأسلوب المهذب الراقى كثيراً من القلوب المغلقة ، التى لولاه ما فتحت « ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك » .

كما أدب الله بهذا الأدب نبيه موسى وأخاه هرون ، حين قال لهما فى شأن فرعون الذى ينازعه الألوهية « اذهبا إلى فرعون إنه طغى فقولا له قولا ليّناً لعله يتذكر أو يخشى » .

* * *

هذا هو أدب النبوة وتأديبها فى النصح والإرشاد بين الأخ وأخيه : رفق وأناة ، وحكمة وموعظة حسنة ، وقول لين لا عنف

فيه ولا تغليظ ، فما بال أقوام إذا نصحوا سبُّوا وقذفوا ، وإذا أرشدوا لاموا وعنفوا ، وإذا رأوا ذنباً ضخموه وهوَّلوا على صاحبه ، ورموه بما ليس فيه؟

ألا إن هذه طريقة منفرة ، من شأنها أن تفتن الناس ، وأن تفسد ولا تصلح ، فمن كان مهدياً نصيحة لأخيه ، فلينصح بالمعروف أو فليخلِّ عنه مواقف النصاح !

obeikandl.com